الثقافة العراقية والمثقف في ظل التحولات السياسية والاجتماعية "الجيل الستيني انموذجا"

م.م. محمود حسين موسى
كلية التربية الأساسية – الجامعة المستنصرية
mahmouddk05@gmail.com
07730007065

مستخلص البحث.
انتهت رحلة قرن من عمر الدولة العراقية الحديثة الى الأحادية المتطرفة والاستبداد، الى الانغلاق ثم التفكيك والحرب الأهلية، ظهرت بعدها البلاد عارية الأضلاع، فبعد كل ما حصل، تتهم السياسة وحدها بأخذ البلاد الى نقطة البدء الى اللادولة والبداوة وتشظيات الهوية، فإذا كان التاريخ "عِبرة" وفق ابن خلدون، فإن استدعاء الماضي هو لكشف الحاضر من أجل المستقبل، فالحاضر مهموم بإعادة إنتاج الماضي السياسي والثقافي، والمثقف شريك أساسي في التحولات السياسية والاجتماعية، ودراسة "روح العصر" ورؤية المثقف للتحولات تحمل من الأهمية الكثير، وهي الزوايا المهملة بالدرس، ويشكّل الجيل الثقافي الستيني "العينة" الأوضح للتضادات والانقسام في التاريخ الثقافي العراقي في القرن العشرين، جيل كان شاهدا على التحولات وفاعلا وشريكا فيها.

الكلمات المفتاحية: التحولات السياسية والاجتماعية، الثقافة، الهوية، الحداثة، الأيديولوجيا، الحروب الثقافية.

مقدمة.
بعد مئة عام من تأسيس الدولة العراقية، مازالت البلاد تنزف الأبناء والثروة، تنزف الماضي والحاضر والمستقبل وتتصدر الأزمات في نشرات الأخبار العالمية، ومازال الحلم في إنتاج نظام سياسي يضع البلاد في سكة البلدان المستقرة بعيد المنال، فمازالت البلاد دون يوم وطني متفق عليه وحتى في يوم الموت لكلٍّ نشيده، يوم الشهيد المسلم ويوم شهيد المحراب ويوم الشهيد الشيوعي ويوم الشهيد الكردي، ومازال التاريخ السياسي والثقافي غائبا وعصيا على التدوين، تحولات سياسية واجتماعية وثقافية كبرى كان المثقف شاهدا عليها وشريكا فيها، وانقسامات سياسية واجتماعية وثقافية، كانت الأكثر تطرفا بين المثيلات في المحيط المشرقي المتماثل، ومازالت الأجيال تعيد إنتاج الانقسام والقسوة ودورة العنف جيلا بعد جيل. إن اختيار جيل الستينات وفق ما درج من تحقيب عشري "عقدي" للثقافة العراقية، مرتبط بفرضية البحث الأساسية، فالستينات في قلب تحولات القرن العشرين الذي وصف "عصر التطرفات"، أخذت الماضي والحاضر الى الذروة، وتركته معلقا على حبل الأمل وأزمنة الانتظار، ثم الى المجهول، جيل رافق التحولات وشهد أربعة انقلابات عسكرية خلال عشر سنوات (1958-1968م)، وكان الأكثر إنتاجا وصخبا وانفتاحا على موجات الحداثة الغربية، والأكثر تفاعلا مع المتغيرات الدولية وانعكاسها على الثقافة العراقية، والأكثر اندماجا في التجاذبات "الأيديوثقافية" التي رافقت الصراع على السلطة وانعكاسها على المجتمع والثقافة.

يقوم البحث على افتراضات بأن التضادات الحادة والانقسامات المتطرفة في المجتمع والثقافة، تعود لأسباب التكوين التاريخي المرتبط بالتطور السياسي والاجتماعي، ولطبيعة البنية الاجتماعية المرتبطة بالبداوة المتجذّرة والمتجدّدة، وأيضا لاضطراب "وعي" المثقف لموقعه ولدوره ولطبيعة التحولات، وما خلّفته الحداثة في الثقافة العراقية من اغتراب عن الواقع، هذه المعطيات مجتمعة كانت هي المنابع الاجتماعية والثقافية "للمثقف"، وتستند الفرضية على اطروحات علي الوردي، بأن العراق إحدى البيئات التي تتداخل فيها بوضوح ثلاث بنى اجتماعية، الحضر والريف والبداوة، هذا التداخل والتموج قد خلق اندماجا، يتضح فيه التطرف والتموضعات الثنائية الحادة في السياسة والثقافة، وانغماس المثقف بالصراعات الأيديولوجية وانقساماتها.

هذه الورقة هي محاولة في التاريخ الثقافي والدراسات الثقافية التي تتعدّد أبعاد وسويات رؤيتها وتداخلها، للوقوف عند واقع الثقافة العراقية وموقع المثقف في مراحل التحولات، حيث تأخذ شهادات الستينيين ورؤيتهم الحيّز الأهم من بناء هذه الورقة، كونهم الفاعل الثقافي الستيني الذي سجل شهاداته ورؤيته، ثم قدّم المراجعات والنقد للتجربة الستينية، وقسمت الى ثلاثة محاور، يتوقف الأول عند محطات التحولات في القرن العشرين، وخصّص الثاني لدور الأيديولوجيا والانقسام في الثقافة العراقية، وتناول الثالث الحروب الثقافية ودراسات جيل الستينات "الأيديوثقافية".

مدخل مفاهيمي.

لا بد من إيضاح بعض المفاهيم الأساسية المرتبطة بفرضية ومشكلة البحث.

أولا. إن تداخل التاريخ الثقافي بالسياسي في تاريخ العراق المعاصر، ناتج عن التحام وتداخل الفعل الثقافي بالسياسي وسطوة الأخير على الفعل، وأيضا من علاقة المثقف بالحركات الأيديولوجية من جهة، وبالسلطة من جهة أخرى، حيث شهد المثقف تحولات في مواقعه من الحركات السياسية والاجتماعية أو الأيديولوجيا أو السلطة ورؤيته ودوره، حيدر سعيد يحدّد ثلاثة انتقالات للمثقف، (من المثقف المستقل الى المثقف الأيديولوجي ثم الى مثقف الدولة)[i]، هذا الاندماج والتحوّل في دور المثقف ومواقعه، لا سيما بعد سنة 1958م، هو الذي كان عائقا أمام كتابة التاريخ الثقافي والسياسي معا، لذلك يصعب فصل التاريخ الثقافي عن محتواه السياسي والأيديولوجي، ولم يحظ التاريخ الثقافي بالدرس لأسباب تتعلق بطبيعة النظم الاستبدادية وفضاء الحرية المفقود، وهو الشرط الهام للعمل النقدي والمعرفي، فقد تكرّست بالتدريج سياسة "التحريم" بعد هيمنة الدولة على المجتمع والثقافة في حقبة الاستبداد السياسي، حيدر سعيد أحد الناجين من زمن "الهيمنة الثقافية" والتحريم يقول، (كان مثيرا أن أستطيع التحدث والكتابة، بعد سنوات طويلة من التحريم والكبت)[ii]، ويجتمع مع التحريم طبيعة الانقسامات الأيديولوجية والسياسية الحادة واندماجها بالثقافة، وأسباب تتعلق بطبيعة وتكوين المثقف العراقي وظروف تشكّله المعرفي، وكذلك تعدّد رواة التاريخ الثقافي وتعدّد أبطاله حسب محمد غازي الأخرس، (فالسرديات تتصارع على امتلاك الحقيقة، وكلّ يزعم أن مفهومه هو الأقرب الى حقيقتها والأكثر تمثيلا لروح المثقف من سواه)[iii].

ثانيا. يعدّ مفهوم الثقافة ومعه المثقف من المفاهيم الإشكالية، وحسب ريموند وليامز (إن الثقافة واحدة من ثلاث كلمات هي الأكثر تعقيدا باللغة الإنجليزية، لكن يمكن الإشارة الى عملية عامة للتطور

الفكري والروحي والجمال، الفلسفة والفن والشعر)[iv]، وتتنوّع التعريفات بتنوّع المدارس والشرّاح حتى في التخصص الواحد حسب فالح عبد الجبار، (تتعدّد المضامين لمفهوم الثقافة حتى في الحقل المعرفي الواحد، ويوجد أكثر من 160 مفهوما متباينا للثقافة، فالثقافة هي البناء المنطقي أو السلوك العارف أو أفكار العقل)[v]، ويضع محمد عابد الجابري مفهوما للمثقف يرتبط باستهلاك المعرفة وإعادة إنتاجها، (وهو من يمتهن استهلاك المواد الفكرية والمساهمة في إنتاجها، المادة المعرفية المستهلكة وطريقة استهلاكها وإعادة إنتاجها)[vi]، وهو المفهوم الذي يتبناه البحث لمفهوم المثقف "المنتج المفكر والعارف، فكريا، أدبيا، فنيا"، أما الهوية فيرى المشتغلون والمنظّرون في موضوعات الهوية وتشكّلها بارتباطها بفكرة الثقافة، (فالهويات يمكن أن تتشكل عبر الثقافات الرئيسية والثقافات الفئوية التي ينتمي لها الأفراد، والعلاقة بين الثقافة والهوية تأخذ أشكالا مختلفة)[vii].

ثالثا. إن التحقيب أو التقسيم العشري "العقدي" للثقافة العراقية الذي شاع استخدامه في الأدبيات الثقافية منذ عقود، أطلقه الشعراء الستينيون، ولم يكن مستعملا قبلهم، ظهر لتميّيز تجربتهم الحداثية التي وصفت بالموجة الحداثية الثانية "الحداثة الشعرية"، وتأكيد انسلاخهم عن الحداثة الشعرية الأولى لجيل الرواد "بدر شاكر السياب ونازك الملائكة"، صار بعدها تقسيما شائعا للأجيال الشعرية اللاحقة وعلى مجمل المنتج الثقافي العراقي، السبعينيون والثمانينيون الخ، رغم عدم انطباقه على أجيال صنوف الثقافة غير الشعرية، وبرز الجيل الستيني منذ منتصف الستينات مع ظهور أعمال شعرية جديدة تحمل سمات حداثية جديدة، مع الانفتاح على الثقافية العالمية وتياراتها الحديثة، ومهما تنوعت الرؤى التي سجلها الستينيون حول جيلهم، ورؤية الجيل الستيني بتوصيف نفسه وموقعه ورؤيته لروح العصر والتحولات، فإنها تؤكد أن جيلا ثقافيا له ميزات مختلفة قد تشكّل وبات فاعلا في المشهد الثقافي العراقي، هذا ما تؤكده أغلب الشهادات، شهادتان ستينيتان أعلام من الثقافة الستينية، يؤكد فاضل العزاوي بأن المصطلح أطلقه الستينيون أنفسهم، (ظهر في الكتابات النقدية بعد سنوات من ظهور الأعمال الستينية الأولى أواسط الستينات، وهو يعبّر عن روح معينة سادت الستينات وفضاء آخر للحداثة)[viii]، أما عن كيفية تشكّل مثقف الستينات ومرجعياته الفكرية والسياسية، يصفه العزاوي، (بطفل ثورة تموز الذي بلغ سن الرشد أواسط الستينات، أما جيل الرواد فقد كانوا آباء الثورة التي بشروا من منطلقات أيديولوجية، ظلوا أسراها حتى النهاية، ولم يكن أمامهم ما يتعلمونه من الثورة، لأنه سيكون انقلابا ضد أنفسهم ورؤاهم القديمة، في حين كان وعي الستينيين يتشكل عبر الثورة ذاتها بانتصاراتها واخفاقاتها، وتوجب عليهم اجتياز الجحيم ليدركوا القصور في رؤيا آباء الثورة)[ix]، أما سامي مهدي فيرى بأن هذا الجيل يتميّز عن الجيل الذي سبقه، تعود لظروف تشكّل مختلفة، (تشكّل وعيه في ظروف المتغيرات الدولية والإقليمية والمحلية بعد الحرب العالمية الثانية، وهي ظاهرة شملت بلدان أخرى، مصر، تونس، لبنان، سورية، المغرب، البحرين، يختلف في تكوينه الثقافي والنفسي عن جيل الرواد الذي تشكّل وتفتّح وعيه في رحم الثقافة التقليدية وقيمها)[x].

المحور الأول. الدولة العراقية والتحولات

أولا. تحولات قرن.

سقط العراق في تجربة الاحتلال الثانية "الأمريكي" بعد أقل من قرن من الاحتلال الأول "البريطاني"، وانتهت رحلة الدولة العراقية الحديثة التي تأسست عام 1921م بعد الاحتلال البريطاني بالتفكيك في نيسان 2003م بعد الاحتلال الأمريكي، ومهما كانت مبررات الحرب وغزو العراق أو مسبباتها المعلنة، كان الحراك الأمريكي متجها نحو التدخل في شؤون الدول الفاشلة، العراق وأفغانستان كانت الأمثلة الأوضح، ويتشابه الاحتلال البريطاني والاحتلال الأمريكي من حيث الشكل، غزو عسكري وتنصيب حاكم تُوكل إليه السلطة وإدارة شؤون البلاد، ثم تشكيل سلطة محلية "برسي كوكس - بول بريمر"، وتتشابه صلاحيات كلَ منهما بموجب صك "الانتداب-الاحتلال" من الشرعية الدولية "عصبة الأمم المتحدة- هيئة الأمم المتحدة"، ولا يختلف البناء الأول للدولة العراقية عن البناء الثاني من حيث الشكل والآلية، لكنهما يختلفان من حيث "البنية والمضمون" وبطبيعة الإجراءات والسياسات التي اتبعها كل منهما، فقد اعتمد البناء البريطاني للدولة العراقية مبدأ التوحيد والمركزية الصارمة للسلطة، فيما اعتمد البناء الأمريكي على التفكيك واللامركزية المفرطة للسلطة. يوضح الجدول أدناه تشابه المراحل والإجراءات بين الاحتلالين، وتمثل المراحل الست الأولى ما اعتبرناه الشكل والآلية، أما السابعة فهي تمثل البنية والمضمون في بناء الدولة ومؤسساتها.

	1	2	3	4	5	6	7
الاحتلال البريطاني 1914م	غزو عسكري الانتداب من عصبة الأمم سنة 1920م	حاكم عسكري أرنولد ويلسون 1918-1920م	حاكم مدني المندوب السامي برسي كوكس 1920-1923م	تشكيل سلطة محلية حكومة النقيب تأسيس الجيش اختيار الملك فيصل	دستور مؤقت انتخابات دستور دائم	اتفاقية تعاون استراتيجي معاهدات "1920، 1930، 1948م"	التوحيد المركزية الصارمة
الاحتلال الأمريكي سنة 2003م	غزو عسكري سلطة احتلال قرار مجلس الأمن 2003/1483م	حاكم عسكري جاي غارنر ثم بول بريمر	حاكم مدني بول بريمر 2003-2004	تشكيل سلطة محلية مجلس الحكم إدارة الدولة	دستور مؤقت انتخابات دستور دائم	اتفاقية تعاون استراتيجي سنة 2008م	التفكيك اللامركزية المفرطة

وشكّلت أزمة صناعة السلطة السمة الواضحة في تاريخ العراق الحديث منذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة، تتضح الأزمة من خلال الاستعصاء في خلق نظام سياسي مستقر، ومسيرة مئة عام من الاضطرابات والانقلابات، حيث بُنيت السلطة في الدولة الأولى من ثلاثية نخبوية "الملك، الجيش، شيوخ العشائر"، وهو تآلف يشابه ما سارت عليه في أوربا العصور الوسطى "الملكية، الكنيسة، الإقطاع"، تخلّصت منه أوربا مع عصر النهضة والثورة الفرنسية عام 1789م، أما البناء الثاني فقد بدأ بتفكيك ما تبقى من مؤسسات الدولة، والبناء وفق لامركزية مفرطة، (على أساس ثلاثية المكونات الكبرى "سنة – كرد – شيعة"، التي تمتعت بتمثيل سياسي واضح، ودخلت في دوامة الصراع على السلطة عبر نخبها السياسية المختلفة)[xi]، وقد قاد هذا التكوين الى استنهاض الهويات الفرعية وتكريسها بغياب مبدأ التمثيل السياسي في صناعة السلطة، ومهّد هذا الواقع لمشهد الانقسام والتجاذب والتكاثف الاجتماعي والسياسي والثقافي وفق هذه الثلاثية المكوناتية، (بعد تبنّى الدستور الدائم مبدأ فيتو المكونات الكبرى "ثلاث محافظات"[xii]، وفُتحت أبواب التناقضات والتركة الثقيلة من الأزمات السياسية والاجتماعية والثقافية دفعة واحدة، لتدخل البلاد في نفق مظلم جديد ودورة جديدة من التشكّل. ويوضح الجدول أدناه طبيعة التحولات في المكونات الاجتماعية والسياسية التي تكونت منها السلطة في الدولة الأولى والثانية.

الفترة الزمنية	1921 - 1958م	1958 - 2003م	بعد سنة 2003م
نوع السلطة	الملكية الدستورية	الجمهوريات العسكرية	الجمهورية الفيدرالية
مكونات السلطة	الملك – الجيش - شيوخ العشائر	الجيش - حزبي – عائلي	سنة – شيعة - كرد

كان منحى البناء "المؤسسي" للدولة تصاعديا خلال العهد الملكي (1921-1958م)، وهي فترة التأسيس للبناء المؤسسي والأكثر استقرارا للهوية، لكن النمو السياسي والدستوري كان يمضي بوتيرة بطيئة، يقابله التطور الاجتماعي والثقافي الذي كان يمضي بوتيرة عالية، وبتأمل الساحة السياسية في الخمسينات نجد أن مؤسسة السلطة كانت بحالة عزلة، هذه العزلة كانت سببا بزواله في تموز 1958م، (إن انغلاق النظام واحتكار القرار السياسي والاقتصادي وعدم القدرة على مواكبة التطورات العالمية، أوصل الطبقة الحاكمة نحو مزيد من العزلة، تجاهلت أو لم تكن تدرك طبيعة التحولات الاجتماعية والسياسية في القاع الاجتماعي، الذي تحول الى نار تحت الرماد منذ نهاية الأربعينات في عالم تسارعت فيه التحولات الكبرى، كل المؤشرات كانت تشير الى أنه سينفجر بوجه الجميع)[xiii]، لكن البناء المؤسسي صار تنازليا بعد تموز 1958م، أي مرحلة "هدم" لما تم تشييده من مؤسسات دستورية خلال الفترة السابقة، وتحول الصراع على السلطة الى انقسام سياسي وثقافي واجتماعي حاد وعامل عدم استقرار، حيث شهد العراق أربعة انقلابات عسكرية خلال عشر سنوات (تموز 1958، شباط 1963، ت2 1963، تموز 1968م)، تولى خلالها عسكريون حكم البلاد، وتكاثفت بعدها السلطة بالتدريج نحو مرحلة استبداد أحادية طويلة، أخذت البلاد الى الانغلاق والجمود. يوضح الجدول أدناه سلسلة الانقلابات العسكرية التي نجحت بالإمساك بالسطلة واتجاهاتها السياسية، وقد أهملنا المحاولات الانقلابية الفاشلة خلال نفس الفترة منها، "محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم سنة 1959م، حركة حسن سريع 1963م"، ويلاحظ أن القادة الثلاث الذين تزعموا السلطة، كانوا ضباطا في المؤسسة العسكرية الملكية.

الفترة الزمنية	1958	1963	1963	1968
الانقلاب	الضباط الأحرار	الضباط القوميون	الضباط القوميون	الضباط القوميون
الاتجاهات السياسية	اتجاهات متنوعة "يساري وقومي ومستقل"	البعث والقوميون	القوميون	البعث
رأس السلطة	عبد الكريم قاسم	عبد السلام عارف	عبد السلام عارف	أحمد حسن البكر

ثانيا. الثقافة والهوية.

يرتبط تشكّل الهوية وتحولاتها بالحالة السياسية، المثال الأوضح هنا هو تشكل الهوية العراقية مع تأسيس الدولة العراقية، لكن الدور الثقافي صار له من الأهمية في استقرار الهوية واضطراباتها حسب محمد عابد الجابري، (وقد أخذت المسألة الثقافية في معناها الواسع في عالم اليوم، دورا بارزا في التحركات الاجتماعية والسياسية، بل تقدم نفسها في بعض البلدان كفاعل وحيد، أو هي المحرك

للتاريخ المعاصر)[xiv]، ويذهب الجابري برصده تطور المسألة الثقافية وعلاقتها التراتبية مع السياسة الاقتصاد في المجتمعات الحديثة، (تبادل المواقع في العلاقة التراتبية بين الاقتصادي السياسي والثقافي، حيث صار الميل في العقود الأخيرة لإعطاء العامل الثقافي الأولوية، بل في بعض المجتمعات هو العامل الوحيد المشكّل للهوية)[xv]، لكن في الحالة العراقية لا يبدو الأمر كما اطروحة الجابري، والسبب يعود لتعقيدات مجموعة عوامل مجتمعة ومتشابكة، فالتراتبية في العلاقة بين السياسي والثقافي كانت تتبع هوى السياسية، وحسب حيدر سعيد (كانت العلاقة لصالح السياسي منذ تأسيس الدولة العراقية وحتى انهيارها، بعدها غادر العراق النموذج القومي الذي اعتمد على تذويب الهويات في هوية واحدة)[xvi]. إن أغلب الاطروحات التي تناقش قضية الهوية وتحولاتها تشير الى الدور السياسي والاجتماعي المرتبط بالبداوة "الكامنة"، وهنا يتوارى الدور الثقافي في التحولات خلف البعد السياسي، ويرى فلاح رحيم، أن تماهي المثقف مع "الجماعة" قد أفقده دوره التنويري، (ومن مظاهر الأزمة أن المثقف تماهى في هذه المرحلة مع الجماعة وألغى أية فجوة يمكن أن تقوده بعيدا عن كينونتها ووعيها بذاتها، وكان ذلك الأصل في أزمة التنوير العربي والعراقي على وجه الخصوص)[xvii].وقد رافق محطات التحولات الكبرى في تاريخ العراق المعاصر السياسية والاجتماعية والثقافية، تغيّرات رمزية واسعة ذات دلالات هوياتية، ويرصد حيدر سعيد بعض هذه التحولات في الدلالات الرمزية للأسماء، (التسميات في الخمسينات تعبر عن نزعة وطنية، الاستقلال، الكفاح، التحرير، النضال، الحرية، الجمهورية، الوحدة، ثم تحولت في زمن الأيديولوجيا القومية الى رمزيات من التاريخ العربي الإسلامي، المثنى، صلاح الدين، القادسية، ذي قار، ومثلها تغيّرت تسمية مدينة الثورة الى مدينة صدام ثم مدينة الصدر خلال عقدين، حتى اختلط الاسم على السكان)[xviii].ونجد تفاعلات هذه التحولات والتداخلات اليومية في المجتمع العراقي بعد سنة 2003م، فكان غياب السلطة أثره في بروز المؤسسات البديلة، (فقد شاع في العراق اجتماع ثلاث رمزيات في "خيمة" لحل مشكلة اجتماعية، رجل شرطة وشيخ عشيرة ورجل دين، وهو كثير الحدوث في العراق ما بعد سنة 2003م، رمزيات لثلاثة منابع للقانون والسلطة، قانون الدولة وسلطتها، الأعراف القبلية وسلطتها، الشريعة وسلطتها، هذه الخلطة التي ربما ينفرد بها المجتمع العراقي في القرن الحادي والعشرين)[xix]، وتبدو المؤسسات متنافرة في الظاهر لكنها متصالحة في الجوهر وذات مقبولية اجتماعية وثقافية، وهي أخطر على المستقبل والهوية من سيادة سلطة القبيلة وحدها أو الشريعة، كونهما محكومتان بحتمية التطور، ويختزل هذا الواقع الذي فرض نفسه بعد انهيار الدولة سنة 2003م أزمة الهوية، ويتوقف علي الوردي عند الواقع الاجتماعي والثقافي، ويذهب الى رسوخ العقل الازدواجي في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية العراقية، الذي يتجسد بوضوح في أنماط التفكير والممارسة، (أن الحضارة الحديثة لم تتغلغل في الأعماق، أخذ الناس منها ظاهرها، فالفرد بدوي في أعماقه حضري في ظاهره، فهو منقسم على نفسه من حيث لا يدري، الذي يطلق عليه ازدواج الشخصية)[xx].ويدعو هذا الواقع للتوقف ومراجعة كل المقولات، فقد قاد فشل النخب السياسية والثقافية برعاية واحتضان فكرة المواطنة والأمة الى التفكّك الهوياتي، فقد تغلب الصراع على السلطة والتعصب الأيديولوجي على الرؤية لمستقبل المجتمع وتطوره، (انهارت مرويات ثقافة الدولة

الوطنية والثوابت التي رسختها وأوصلتها الى الأزمة والتفكك، الهوية الأحادية للبلاد)[xxi]، ويتوقف حيدر سعيد عند حالة التحولات الهوياتية في الحقب المختلفة وأثرها على تصدع فكرة المواطنة وفكرة الأمة، (أن فصاما حادا عاشته الدولة، بين الهوية السياسية الوطنية وبين الهوية الثقافية "القومية والدينية"، هذا العجز في تأسيس هوية "ثقافية وطنية" هو الذي قاد الى الفشل الذريع والسقوط، فعملت الأيديولوجيا القومية التي تبنّتها الدولة على تكسير فكرة الوطن داخل الشخصية العراقية، فضلا عن منع قيام أمة عراقية)[xxii]، ويتوقف فالح عبد الجبار عند التحولات السياسية والاجتماعية والثقافية في المجتمع العراقي خلال القرن العشرين، (إن الانتقال من عالم القبائل الى الدولة المركزية، ومواجهة الحداثة وجها لوجه مع دخول القوات البريطانية عام 1914م، أحدثت انتقالات سريعة باستحداث الهوية الوطنية العابرة للملل والنحل، وفكرة المواطنة محل الرعية)[xxiii]، ويرى فالح عبد الجبار في الانتقالات السريعة السبب في اضطرابات الهوية والثقافة، (أن هذه الانتقالات كانت مدمّرة، فقد انضغطت في قرن قياسا الى أوربا "عدة قرون"، مولّدة توترات متشعبة داخل البنية الاجتماعية والثقافية، تركتنا في حال من النزاع مع النفس)[xxiv]، ويختصر حيدر سعيد التحولات الهوياتية بالقول، (غادر العراق النموذج القومي، واكتشف نفسه بعد سنة 2003م بأنه بلد تعددي يقوم على مركب هويات إثنية ودينية وطائفية متعددة، واعترف النظام الجديد بهذه الهويات على عكس ما كانت عليه بصهر وتذويب هذه الهويات في هوية واحدة)[xxv].

ويُرجع فلاح رحيم سبب الأزمات في العالم الثالث الى فشل المجتمعات بتطوير البيئة الدستورية وانعكاسها على تحولات الهوية، (أدى غياب البيئة الدستورية الراسخة الى تشظي المجتمع بحسب هوياته الفرعية والأيديولوجية وتهاوي الثقة بالعقل والتقدم والتوافق على قيم عابرة للجماعات)[xxvi].

المحور الثاني. الثقافة والأيديولوجيا والانقسام.

أولا. العصر الأيديولوجي.

ألقى الصراع على السلطة ودورة العنف خلال الانقلابات العسكرية التي افتتحها انقلاب بكر صدقي عام 1936م بظلاله على الحياة السياسية والثقافية، وانتقلت الفوضى السياسية من مؤسسات الحكم الى البنية الاجتماعية والثقافية، وتأثر المثقف بالتحولات الدولية الساخنة قبل وبعد الحرب الكونية الثانية في بلدان عديدة، (ترافق هذا التحول بوقوع المثقف في العراق تحت عباءة السياسة مع ظهور مفهوم "المثقف الثوري" في الخمسينات، حيث شكّلت الماركسية عصب الثقافة وروح العصر أو الموضة الأيديولوجية)[xxvii]، وصار المثقف طرفا في التشكيلات الحزبية، (وقد ظهر المثقف الحزبي بعد ظهور التجربة الحزبية نهاية أربعينات القرن العشرين، وكان جلّهم متحزبين، بل كان المثقف مجرد أداة في الصراع الأيديولوجي)[xxviii].لكن نقطة التحول بدور المثقف واشتداد عصر الصراعات الأيديوثقافية اتضحت بعد تموز 1958م، حيث شهدت مرحلة الستينات تحولات سريعة في بنية المجتمع العراقي، فوزي كريم أحد رموز الثقافة يسجل رؤيته للتحولات، (كان أبطالها نسيج من الجيش، الأحزاب، والمثقفين، ويقف خلفهم المجتمع الذي انقسم بدوره الى ضفتين، تفاعل بشكل واسع مع ما كان يجري من أحداث سريعة، كانت الأحزاب تتسابق لكسبه، وكاريزما الضابط رمزية الأحزاب، والمثقف ينشد قصائد المدح والذم ومقالات الصحف لتحريضه)[xxix]، هذه الصورة للحياة

السياسية والثقافية الستينية تفسرها الانقلابات والأحداث السياسية المتسارعة، ويواصل فوزي كريم شهادته، (وسط هذا الصراع الدامي، أُختُطِفَت السلطة بانقلاب تموز 1968م وبعدها المجتمع، وتمكنت أشجار الشر من الغابة، فقد ساهم الستينيون في تغذيتها ورعاية أغصانها، ولكن ساعة القطاف فاجأته بثمار مرة المذاق، صدام حسين واحدا من الأشجار أكل الغاب جميعا)[xxx].

وقد اجتذبت الأيديولوجيات المتحاربة روادها في واحات للصراع أو "خنادق ثقافية"، (فقد انشق المثقفون بعد تموز 1958م على نحو غير مسبوق، وغادر الكثير منهم البلاد بسبب العنف خلال فترة الانقلابات)[xxxi]، واتضح التموضع النخبوي بين ضفتين "الماركسية والقومية"، ازداد فيها التماهي مع الأيديولوجيا الى حدود بعيدة من الانغلاق والتطرف والانغماس بالشأن السياسي، بسبب الطبيعة الثنائية للصراع السياسي والأيديولوجي، جعل الثقافة تنهمك بالفعل والاحتراب اليومي لا المعرفي، (وانتقلت العصبية من البنية القبلية للمجتمع الى الأحزاب السياسية، واستبدل الناس قبائلهم القديمة بقبائل الأحزاب الجديدة، وأصبح المرء لا يجد نفسه إلا في الحزب الذي ينتمي إليه)[xxxii]، فوزي كريم يصف المشهد السياسي والثقافي بالقول، (بدأت الحياة تأخذ في تحولاتها الخطيرة شكل مفاهيم وأفكار، المعترك العقائدي صار بديلا لمعترك المعاش، كل شيء حيّ تحول الى رمز ميت مثير للجدل، بلغ بالإنسان أن صار يُعرّف باللون الذي يمثله، والألوان رموز العقائد، هذا أخضر وهذا أحمر، وسرعان ما سهّل سحق الإنسان وتصفيته ما أن تجرّد الى رمز، كانت دعوة غير واعية للإبادة الجماعية، دعوة تُسهم فيها قصائد الشعراء الثوريين والبيانات الأدبية والسياسية)[xxxiii].

وتصدرت بعد تموز 1958م مظاهر ملفتة في الثقافة العراقية تعكس طبيعة الانقسامات وسطوة السياسة على الثقافة، انقسام المؤسسات الثقافية بجانب الانقسامات السياسية في التقابل الثنائي، فصار اتحاد الأدباء الذي تأسس عام 1959م برئاسة الشاعر محمد مهدي الجواهري لليساريين، وظهر بعده تجمع آخر مواز صغير تم تأسيسه عام 1959م للقوميين "جمعية الكتاب والمؤلفين العراقيين" حسب سامي مهدي، الذي يؤكد بأن هدفه كان سياسيا، (كانت وراء تأسيسه دوافع سياسية أكثر منها ثقافية)[xxxiv]، ومن المظاهر الجديدة الملفتة في الثقافة العراقية في تلك المرحلة التي تعكس اندماج السياسي بالثقافي، (صارت مجلة اتحاد الأدباء تزين أعدادها بأقوال الزعيم عبد الكريم قاسم)[xxxv]، وإهداء نازك الملائكة كتابها الأدبي النقدي الصادر سنة 1963م الى الرئيس جمال عبد الناصر، (تقديرا لإيمانه بالأمة العربية وجهاده في سبيلها كما دونت الملائكة إهداءها على كتابها)[xxxvi]، وكشفت قضية بدر شاكر السياب وهي ليست الوحيدة التي كانت تحصل، عن هيمنة السياسي على المثقف والثقافة في مرحلة التطرفات الأيديولوجية، السياب المنفي الى الكويت بسبب انتمائه الشيوعي يحارب ويعتدى عليه بتحريض حزبي، لأنه كان له رأي أو خرج من المّلة، وحسب فاطمة المحسن (إن الاجراءات الجمعية بحق المثقف "الخارج عن الملة أو الفكرة"، لا تخلو من القسوة والتخوين والمحاربة بكل الوسائل)[xxxvii].ويصف فاضل العزاوي مشهد الكراهية الذي وصل إليها المجتمع السياسي والثقافي "المتمترّس" خلف خطوط التضادات الأيديولوجية، (بلغ العداء ذروته بين القوميون والشيوعيون، فاذا صادف أحدهما الآخر في الطريق، يبدأ الهجوم والاشتباك بالأيدي أو تبادل الشتائم في أفضل الأحوال)[xxxviii]، ويرى فوزي كريم الذي يمثل الصوت "الثالث" أو الخافت،

(أن الروح الحية والموجة الصاخبة[xxxix]، مثّلت بصورة صادقة عن هستريا الرغبة في تجريد الإنسان الى مجموعة أفكار، وأعطت الشرعية لسحقه تحت عجلة رمزيته)[xl]، وكانت الرمزيات الثنائية المتقابلة التي شاعت ذات دلالات أيديولوجية واضحة، (فكلمة التقدم صارت شفرة عند الشيوعيين، ووحدوي ترمز للقومي أو العروبي، وأصبحت من أهم المفردات في قاموس الستينات والسبعينات)[xli]، وكرّست الصورة المتشظية التي شملت السياسة والثقافة الانقسام المجتمعي، وساهمت في تصدر روح الكراهية والعنف، (فقد المجتمع العراقي وحدته بانشطاره الى جبهتين، بسعي كل قبيلة حزبية للقضاء على الأخرى، وظهر كأنه صراع بين اليسار ممثلا بالشيوعيين واليمين من القوميين والمحافظين، لكنه كان صراعا بين أشكال من التخلف السياسي والاجتماعي والثقافي)[xlii]، هذه الشهادات التي سجلها المثقف الستيني، تمثل رؤية المثقف لروح العصر الذي عاشه واندمج فيه.سارت البلاد بعدها نحو الاستبداد والأحادية المتطرفة، ظهرت فيها الهيمنة الثقافية بأوضح صورها، في التعليم والحياة السياسية والثقافية، فقد عُدلت المناهج الدراسية وفق مفاهيم أيديولوجية قومية، وصارت المدرسة مصنعا لجيل متحزب منذ الصغر بواسطة "طلائع البعث"، يتحول بعد سنوات الى الكليات المغلقة لحزب السلطة، وهي الكليات والمعاهد المنتجة للأجيال والثقافة، "معهد وكلية الفنون الجميلة، دار المعلمين، كليات التربية، وغيرها"، وأصبحت مؤسسات صناعة الثقافة والإعلام تقاد من متحزبين، وتتابع فاطمة المحسن رصد تحولات المثقف ودوره في تلك المرحلة التي تصفها بمرحلة الانحطاط الثقافي، (ظهر مثقف المسدس، والمثقف المدير، والانتهازي، والمخبر، والزيتوني، وطوابير المداحين، وغيرها من الأسماء التي تعكس طبيعة المرحلة، التي أنتجت جيلا ثقافيا ممسوخا، تصدى بكل طاقته لإشاعة الكراهية والعنف ولغة الموت، وبلغ الانحطاط الثقافي حدا يصعب تصوره في الثمانينات والتسعينات، وتصدر المشهد جيش جديد من أميي الثقافة بالمدائح الكاذبة للحزب والحاكم، ودعاية مخجلة للحرب والقتل والإرهاب، أدت في النهاية الى خراب كل شيء في العراق)[xliii]، وقد ساهم تسابق حشد هائل من المثقفين منذ منتصف السبعينات، وصل ذروته أثناء الحرب العراقية الإيرانية (1980-1988م) في الترويج لرحلة الموت والدمار، (فسيرة آلاف المدائح وأطنان الأناشيد وطوابير المادحين، جمعها عدنان الجبوري في معجم كتاب وأدباء ومؤلفي أم المعارك بتسعة مجلدات، وقد تفسر ما حصل)[xliv].

ويشير الواقع السياسي والثقافي بعد سنة 2003م الى إعادة إنتاج الماضي برموز هوياتية جديدة، وقد ألقت عقود من التحريم والأحادية وشيوع ثقافة الموت والوشاية أثقالا على المشهد السياسي والاجتماعي والثقافي، فقد ورث المشهد الثقافي حالة الانقسام والصراعات التي دامت عقودا، محمد غازي الأخرس يرصد واقع المثقف بعد سنة 2003م، (تجدّدت طرائق صراعات المثقفين بعد سقوط الديكتاتورية وكأنهم يتصارعون في مركب سكران، يمكن أن يهوي بهم بين لحظة وأخرى، وصل الأمر حد القتل الجسدي)[xlv].

ثانيا. الثقافة العراقية والحداثة.

بدأ التماس مع الحداثة الغربية بشكل واسع مع تأسيس الدولة العراقية الحديثة والنظم الحديثة في الإدارة والمؤسسات الدستورية والتعليم والمواصلات والري وغيرها، (والفترة التي شهدت تحولا في تاريخ الثقافة العراقية وانعطافة نحو التحديث، هي تلك الفترة التي بدأت في عقدي الأربعينات والخمسينات، وامتدت نحو أربعة عقود قبل أن تشرع في رحلة الانتكاس، وظلت الحداثة في العراق مقتصرة على جهود نخب وفئات محدودة يرتبط أغلبها بمشروع الدولة، في حين بقيت الأكثرية الشعبية بمنأى عنها، لذا بدت الفكرة ذاتها محض رغائب ثقافية يعبر عنها أفراد وجماعات قليلة سواء في مدوناتهم التي تركوها أو في طرائق عيشهم وعمرانهم وسبل اجتماعهم، وبخاصة لدى الأدباء والفنانين والسياسيين)[xlvi]، وترى فاطمة المحسن أن الخمسينات شكّلت ذروة البناء الثقافي المؤسسي أو "جيل التأسيس الثاني"، (بدأت في الأربعينات الصياغة العملية لبناء المؤسسة الثقافية، بعد عودة جيل من الدارسين في الجامعات الغربية منذ الثلاثينات، تأسيس الجامعات العراقية ومراكز البحوث والنشر، وكان جيل الأربعينات والخمسينات الأكثر حظا في الاستقرار، وهو زمن التأسيس الثاني الذي ظهرت فيه أسماء لامعة في الأدب والفن يعدون في طليعة الحركة الفنية العربية)[xlvii].

انعكس تدفق الحداثة للثقافة العراقية على الأدب والفن، وظلّت الحياة الفكرية تفصلها مسافة عن التطور الفكري في العالم، ويبقى مشروع علي الوردي الاستثناء الأوضح في الثقافة العراقية، ويمكن القول بأن الثقافة العراقية هي ثقافة شعرية، فقد تصدّر الشعر منابر الثقافة العراقية على الدوام مقابل تجاهل الصنوف الثقافية الأخرى غير الأدبية، ويتوقف حيدر سعيد عند هذه الحقيقة، أي المسافة الفاصلة بين العلم والثقافة العراقية، ويعتقد بأن جيله تمكن من تغيير الصورة التي شاعت في الثقافة العراقية، (استطاع كسر هذا الجدار السميك للشعرية، حيث اجتهدت الثقافة العراقية لتبقى أدبية، صافية وناصعة، وكانت تعدّ ما خارج نتاجاتها الثقافي مجرّد عمل أكاديمي ينظر إليه بعين الدونية، ومع صعود العلوم الاجتماعية والإنسانية في التسعينات، تم التشكيك في هيمنة الشعر، وإعادة موضعة العلوم الإنسانية في خريطة الثقافة العراقية، مما سيسمح لأول مرة بكتابة تاريخ للفكر في العراق)[xlviii]، ويشكو علي الوردي الولع المفرط بالشعر الذي يرى فيه ابتعادا عن الواقع، (أننا أكثر الأمم ولعاً بالشعر وانهماكا فيه، وهذا عيب من عيوبنا الاجتماعية أو هو من مظاهر التناشز الاجتماعي، فنحن نريد أن نسير في مضمار الحضارة الحديثة، لكننا في الوقت نفسه تصرّ على المحافظة على تراثنا الشعري، الذي هو على طرفي نقيض من نظم الحضارة ومقتضياتها، ولا يخفى أن هذا النوع من التفكير يجعل أصحابه بعيدين عن تفهّم الواقع كما هو والاستفادة من دروسه)[xlix].

أظهرت التجربة بعد سنة 2003م تصدّر قيم البداوة الكامنة في المجتمع العراقي، هذا الواقع أعاد الأسئلة دفعة واحدة للمقولات التي تجرّعتها الأجيال الثقافية المتتالية حول الحداثة، ويوصّف فوزي كريم الواقع، (ظلّت الحداثة حلم تختزنه الثقافة الخمسينية في واقع لم ينجو من البداوة والأمية بعد، هذه الحداثة الأوربية المنشأ التي دام إنتاجها وإنضاجها ثلاثة قرون، ابتلعها المثقفون العراقيون والعرب ببضعة سنوات)[l]، هذه الرؤية لا تبتعد عن قراءة علي الوردي لواقع البنية الاجتماعية العراقية التي تأملها كثيرا ودرسها بعمق، وتنقل فاطمة المحسن صورة الواقع الاجتماعي والثقافي

بعين الآخر القادم لبغداد للتو، عن رؤية جبرا إبراهيم جبرا بداية الخمسينات استنتاجه من خلال ملاحظاته اليومية، (بوضوح الازدواجية الاجتماعية بين حداثة تتبدى في مظاهر كثيرة، وتخلف يعود الى القيم العشائرية)[li].

ويربط الجابري مفهوم التطور والتنمية بارتباط الثقافة بالعلم، (التنمية حين يندمج العلم في الثقافة، ويصبح ثقافة بمختلف مظاهرها المادية والمعنوية "التصنيع، التنظيم، التخطيط، العقلانية"، وغياب التنمية معناه التخلف، بانفصال العلم عن الثقافة أو الثقافة حين لا يؤسسها العلم)[lii]، هذه المقولة تلامس واقع الثقافة العراقية التي تنحى نحو الوجدان والرمز والخيال الأدبي والشعري بشكل خاص، فأغراضه تلبّي حاجات مجتمعات مازالت تختزن ثقافة البداوة، بقيت الحداثة وأفكارها متأرجحة وغير ناضجة، (لم تكتمل المشاريع الثقافية شأنها شأن الأفكار الجديدة التي دخلت العراق بقوة وانطفأت)[liii]، ودفعت ظروف البلاد السياسية والاجتماعية المثقف نحو الاغتراب والانفصال عن المجتمع، وبهذا خفت الدور التنويري الذي يلعبه المثقف، (تراجع دور المثقف التنويري بعد انكشاف خواء الأنظمة المستبدة المتسترة بقشور التنوير، وصارت حماسته لمثل التنوير تقابل بالشك والقنوط)[liv]، وتتوقف فاطمة المحسن حالة الاغتراب التي عاشها المثقف، (مع اتساع انفتاح الثقافة العراقية على العالم، أصبح شعور المثقف بالاغتراب من بين علامات حداثته، يتعلق بالبيئة الطاردة للثقافة والمتقاطعة مع فكرة الحداثة)[lv]. ويعود تأخر الحياة الفكرية والنقدية في الثقافة العراقية عن مثيلاتها في شمال أفريقيا وبلاد الشام لأسباب متشابكة، لكن المؤكد أن انعدام فضاء الحرية سبب أساسي في تطور الأفكار دون الرقيب والخوف، فالحرية هي الشرط الأساس الذي تتفاعل فيه الأفكار وتنمو وتتطور.

ثالثا. غياب الوسطية والعقلانية.

إن غياب الوسطية أو العقلانية في المجتمع العراقي ظاهرة ملفتة، فالتطرف السياسي والثقافي الذي تفجّر بعد تموز 1958م، يؤكده غياب العقلانية والوسطية في السياسة والثقافة والاجتماع، فالتجربة السياسية ذات النزوع العقلاني والوسطي اختفت أمام موجات التطرف والأحادية، (انتهت الأحزاب التي امتلكت الشرعية في العهد الملكي الوطني والاستقلال، فابتلع الحزب الشيوعي الحزب الوطني الديمقراطي، وابتلع حزب البعث حزب الاستقلال)[lvi]، ويتوقف عبد الله العروي عند مشكلة المثقف العربي والانتقائية بالقول، (يفكر الغالبية من المثقفين العرب وفقا لمنطقين، بحسب منطق السلفي أو بحسب منطق انتقائي، والأغرب من ذلك هو اعتقادهم بتمتعهم بحرية كاملة تسمح لهم حيازة أفضل منتجات الآخرين الثقافية)[lvii]، ويرى العروي أن (اتجاهاتهم متباينة جدا في الظاهر، لكنها موقفهم المعرفي واحد، ويميل بسبب تكوينه المجرد الى اعتناق أي مذهب يظهر في السوق، أي الانتقائية التي لا تمثل ظاهرة انفتاح وتوازن، بقدر ما تشير الى استقلال المثقف عن مجتمعه وعدم تأثيره فيه)[lviii].

رابعا. غياب الثقافة النقدية.

إن غياب الثقافة النقدية هي السمة الأوضح في الثقافة العراقية، فرغم الهزات والتحولات الكبرى التي شهدتها البلاد لم تظهر دراسات نقدية بمستوى الأحداث، ويعود هذا الغياب الى أمرين، يتعلق الأول

بحجم العنف السياسي والتحريم والقسوة، ويتعلق الثاني بارتباط المثقف بالسياسي وتحوله الى أداة دعائية، فقد جرف التيار السياسي السائد معه أفضل مثقفي العراق، وكان الصراع من الحدّة بحيث يصعب على المثقف أن يكون قوة ثقافية مستقلة، ويرى حيدر سعيد أن تحول المثقف الأيديولوجي الى مثقف الدولة في مرحلة تضخم الدول الريعية واحتواءها للمجتمع والمثقف، (هذا الاحتواء من الحزب الى الدولة، كان سببا في بقاء المثقف بعيدا عن فكرة المثقف النقدي)[lix]، ويرى فاضل العزاوي أن دور المثقف النقدي كان غائبا في العالم العربي كله، (من يضعون على صدورهم بطاقات انتمائهم ينشدون اللحن نفسه، وان بكلمات مختلفة، أما الذين لا يمتلكون بطاقات "وهم قليلون" فلم يكونوا يقولون شيئا على الإطلاق)[lx]، ويعزو العزاوي فشل السياب في طريقة المواجهة، قد بدّد فرص لعب المثقف دورا محوريا في الصراعات، (أن فشل السياب في نقده للشيوعيين، قد أضاع فرصة وضع الأسس لدور المثقف في المجتمع)[lxi]، ويشكو حيدر سعيد من فشل النقدية العراقية أن تكون حركة وظاهرة تساهم في تفكيك الماضي وعبره ودروسه حتى بعد زوال الاستبداد والخراب الذي غمر البلاد، (فلم ننجح في بناء حركة نقدية جادة لتحليل ظاهرة الديكتاتورية وتفسيرها، فالاتجاه العام يمضي لاختزال الديكتاتورية بشخص وتبرئة السياق الثقافي والاجتماعي الذي أنتجها واحتضنها، وهو التحدي الأشمل الذي يواجه العراقيين في طريقة التعامل مع الماضي)[lxii].

المحور الثالث. الحروب الثقافية.

أولا. حروب الستينيين.

شهدت العقود الماضية مراجعات نقدية وشهادات من الجيل الستيني نفسه، وتعكس الشهادات روح العصر الذي انتمى له هذا الجيل، فقد افتتح عبد القادر الجنابي ربما دون قصد الباب لجولات سجالية بلبوس المراجعات والنقد، بدأت في ملفات "مجلة فراديس" 1992م التي صدرت في "المنفى" عن الجيل الستيني، ثم كتاب "انفرادات" سنة 1993م الذي خصصه عبد القادر الجنابي لشهادات ومنتج ورؤى الشعراء الستينيين، جاء بعده "الموجة الصاخبة" لسامي مهدي سنة 1994م، ثم كتاب "الروح الحية" لفاضل العزاوي سنة 1997م، ثم "تهافت الستينيين" لفوزي كريم سنة 2005م، وهي دراسات ومراجعات نقدية عن تجربة الجيل الستيني الثقافية، (مساهمات نقدية اختص بها في الغالب شعراء من شهود المرحلة الستينية، وهم زملاء العمل الصحفي والثقافي)[lxiii]، وتمثل هذه الأعمال رواد الحركات والتيارات الأيديولوجية التي كانت مهيمنة في الستينات، (تحمل العناوين رمزيات خطاب التقابلات الثنائية الأيديولوجية، وهي لا تخلو من صدى المعارك الشخصية والسياسية)[lxiv]، لكن التسابق هذه المرة ليس على الفعل كما كانت فترة الصراعات الستينية، بل على المراجعة وإعادة إنتاج الذات.يقول سامي مهدي بأن دراسته تعود للعام 1978م، حيث أنجز الجزء الأكبر منها، تأجل المشروع وعاد إليه بعد عشر سنوات وتوقف، ولم يكتمل حتى عام 1993، ويقول (لقد وقعت في خطأ جسيم، لأنني كنت أتحدث عن المشروع وهناك من يلتقط ويتصيّد الأفكار، ويجعل منها مادة لأنشطة ثقافية وصحفية)[lxv]، وهنا تلميح الى كتاب "انفرادات" لعبد القادر الجنابي ومجلة فراديس التي نشرت في المنفى خارج مؤسسات السلطة ملفات وشهادات عن الجيل الستيني، لكن هذه الرواية

ضعيفة وفق تتبعنا لما نشر في التسعينات، وتبدو كأنها محاولة لتأكيد حضوره وتميّزه الشخصي وأسبقيته في الأفكار أولا، وثانيا لتبرير ظهوره كي لا تبدو كأنها ردود على تجاهله واستبعاده من ملفات "مجلة فراديس"، وعلى ما ورد فيها من رؤى وشهادات سجلها "مثقفون ستينيون" في مجلة فراديس أغلبهم من اليساريين، ويعكس هذا السجال صراعا صريحا بين تيارين، "مثقف المنفى" الذي غادر البلاد في السبعينات، "مثقف السلطة" الذي تزعمه سامي مهدي بالرد، وهو المثقف الملتصق بالسلطة منذ انقلاب 1968م، شغل مناصب إدارية مهمة عديدة وفق ما يذكر في كتابه "الموجة الصاخبة"، (ملحق ثقافي في باريس، الإذاعة والتلفزيون، دائرة الشؤون الثقافية، دار الجماهير للصحافة ورئاسة تحرير جريدة الجمهورية)[lxvi].

وقد نفخت هذه الدراسات في الرماد في وقت كانت فيه الأيديولوجيات بطريقها للاحتضار، وماضية للذبول والانطفاء الذاتي بفعل التقادم، تجدّدت المعارك بعد ثلاثة عقود أي منذ منتصف التسعينات في قوالب مستحدثة، مساهمات اختص بها شعراء من شهود المرحلة الستينية الذين يمثلون مشارب ومدارس أيديولوجية، تحمل العناوين رمزيات خطاب التقابلات الثنائية الأيديولوجية التي كانت مهيمنة، رمزيات مشبعة بالبطولة أو بالتظلم والنزوع التبريري في خريف العمر الذي كان عصيا على الاعتراف، كما فعل فاضل العزاوي وفالح عبد الجبار وفاطمة المحسن في تدوين سيرتها.

إن توقيت هذه الدراسات هنا بالغ الأهمية والدلالة، فقد صدرت بعد سقوط جدار برلين أواخر سنة 1989م، الذي وضع الجميع في منطقة فقدان الوزن ومحنة اليتم الأيديولوجي، وتزامنه مع تصدع النظام السياسي في العراق والبنية الاستبدادية، وما وصلت إليه البلاد بعد غزو الكويت سنة 1990م وحرب الثمان سنوات، تحولات دفعت رواد المراكب العتيقة الى تدوين الرؤى والشهادات من أجل "العبرة" والرسو في مرافئ آمنة. وتمثل هذه السجالات "الأيديوثقافية" تعبيرا حيّا عن روح العصر وطبيعة اندماج الثقافي بالسياسي، تفوح منها الرائحة الأيديولوجية والسياسية مشفوعة بالاحتماء بهذا الدور، وليست ناتجة عن الحاجات الموضوعية التي يتطلبها البحث النقدي وتطور مدارسه النقدية الحديثة، وبالتالي لا يمكن التسليم بكل ما يذهبون إليه في ميدان دراسات التاريخ الثقافي، فهي تزدحم بالميول والانتقائية أولا، والبعد الشخصاني الذي يسعى للتبرير رغم ملامسته الموضوعية، لكنه مهم بذات الوقت كشهادات وتصورات "أيديوثقافية" دوّنها أدباء لعبوا دورا هاما في الحياة الثقافية، وأيضا لمعرفة المزاج "الأيديوثقافي" الذي كان سائدا ومنابعه ومؤثراته، وطرق تفكير النخبة في هذا العصر التي ساهمت بصناعة مقولات وتصورات، باتت راسخة ومقدسة عند الأجيال اللاحقة، تصورات ورؤى شخصية عن الواقع مشبعة "بالروح الحيّة أو الصاخبة"، أصبحت عينات "حيّة وصاخبة" للدراسات الثقافية، كما فعل محمد غازي الأخرس في كتابه "جحيم المثقف" وآخرون.

ثانيا. أدب الندم.

تشير المراجعات للتاريخ السياسي والثقافي العراقي وتنوع القراءات للماضي التي ظهرت بعد أفول عصر الأيديولوجيات الى تنوع أشكال المراجعة، ما بين المراجعة النقدية أو التبريرية أو إعادة إنتاج الذات، وأظهرت شهادات المراجعات مرارة التجربة وقسوتها، أخذت شهود الثقافة الستينية الى الاعتراف ونزف شهاداتهم، فاضل العزاوي، فالح عبد الجبار، فاطمة المحسن وغيرهم، يسجلون

شهاداتهم من أجل المستقبل "العِبرة"، شهادات واعترافات صادقة على مرحلة مضطربة، يمكن تسميتها "بأدب الندم".يتحدث فاضل العزاوي بألم وحسرة عن تجربة مازالت تنخر الذاكرة والتاريخ بالقول، (لم أحزن عندما سمعت بمقتل الملك فيصل الثاني وأفراد العائلة المالكة، اعتبرت ذلك شرطا لانتصار الثورة، فلم أكن أملك حينها ما يكفي من الوعي النقدي والخبرة لأفهم ما يجري، وأستغرب الآن كيف أنني حتى لم أفكر بالأمر، لقد أدركت لاحقا، بأن الإيمان المطلق بحقيقة ما، لا يطالها النقد، يمكن أن يقود الناس ليس الى العمى ونسيان إنسانيتهم فحسب، وإنما الى الجريمة)[lxvii]، ويقول أيضا، (احتجت لسنوات طويلة مليئة بالقهر والإحباطات لأدراك حقيقة ما جرى في فجر 14 تموز، وآثاره المدمرة على كل التطور اللاحق الذي عاشه العراق، ليس لأنني صرت من هواة الملكية التي ارتكبت هي الأخرى الكثير من الجرائم، وإنما لأنني خبرت أكذوبة الفردوس والثورية في نظر الجميع، وفجرت البربرية والوحشية المخزونة داخل الوعي الجمعي للمجتمع الذي استعاد روح قرون الانحطاط الماضية)[lxviii]، وعن تجربة تموز والأحزاب يقول، (ما من أحد جرؤ على إدانة الروح الغوغائية عند الطغمة العسكرية، وأن يرى وراء هيجانهم العاطفي استعدادا لارتكاب الجرائم دون التفكير بآثارها السياسية والنفسية على حياة الناس في المستقبل، ما من حزب سياسي من الشيوعين والديمقراطيين الوطنيين وحتى البعثيين والقوميين أدان الجريمة، الإعدام الجماعي في قصر الرحاب والتمثيل بالجثث والبربرية في الانتقام من الخصوم السياسيين، وبلغ العماء بالمجتمع حد اعتبار السحل بالحبال تعبيرا عن الإرادة الشعبية في الدفاع عن الثورة)[lxix].

ويذهب فالح عبد الجبار في كتابه "ما بعد ماركس"، وهو عصارة نقدية لمجمل الفكر الاشتراكي وما خلفته التجربة الاشتراكية (كان مكتوب عليها الفشل والانهيار)، ويذهب الى تفنيد الرؤية اللينينية في كتاب "الدولة والثورة"، ويرى (أن أهميته تكمن بانعدام أهميته النظرية أو العلمية، فهو لا يزيد عن تلخيصات لأقوال ماركس وإنجلز بشأن الدولة)[lxx]، ويعترف بألم وحسرة المفكّر لأخذ "العِبرَة" التي كان ثمنها قرن من أعمار أجيال ودماء عشرات الملايين بالقول، (تثبت تجربة أكتوبر بالملموس ما هو الطريق الخاطئ الذي لا يتوجب علينا اتباعه، أقول هذا وأنا مدمى القلب، لأن شعوب الاتحاد السوفيتي تحملت أعباء دمار الحرب الأهلية وخراب حربين عالميتين، وهكذا تقول لنا الثورة الروسية ما لا ينبغي عمله، وما لا ينبغي السير عليه)[lxxi].

وتسجل فاطمة المحسن في سيرتها ندما واضحا، وفي حديثها عن أحوال البلاد والذاكرة وعن اتحاد الأدباء الذي قصدته بعد عودتها من رحلة المنفى الطويلة، تقول عن المكان والتحولات السريعة، وتختم رحلتها بحزن شديد عن هزيمة القرن، (شهد هذا المكان أزمنة متبدّلة، أزمنة الحروب والصراعات وأدباء المسدسات والشعراء المداحين، وروائيي الرئيس، لكنه لم يعرف كيف يكون مكانا ثقافيا، كانت الثقافة العراقية تقاوم، واليوم تعلن استسلامها، فقد تَعَبَتْ من التَعَبْ)[lxxii].

وبهذا "النَزف المُتعَب" أختم.

الخاتمة.

كان حدث 14 تموز 1958م تحولا مفصليا في تاريخ العراق المعاصر، دخلت البلاد بعدها في دوامة الانقلابات العسكرية والصراع على السلطة، وساهم غياب الرؤية والمشروع الوطني عند أغلب

الجماعات السياسية بعد تموز 1958 في تصاعد وتيرة التعصّب الأيديولوجي والانقسام الحاد، وفقدان فرص تطوير المؤسسات الدستورية التي تأسست مع تأسيس الدولة العراقية، والميل للتفرّد بممارسة السلطة واستنهاض كل ما يحاكي الشعبوية لضمان مصادر القوة والديمومة، مما زاد من حدّة الانقسامات الاجتماعية، وحرمت روح الغلبة لدى النخب والجماعات المهيمنة على القرار السياسي البلاد، وسياسة الإخضاع التام للمجتمع ومؤسسات الثقافة من فرص النهوض والاستقرار والإنماء المتوازن. إن ظاهرة وقوع المثقف في أحضان السياسي التي شاعت منذ الستينات حوّله الى أداة دعائية، وجرّده من أدواته المعرفية والرؤية الموضوعية والقدرة على لعب دوره التنويري والنقد، ونستدل من خلال استعراض التجربة الثقافية الستينية على روح تلك الحقبة، وطبيعة التحولات السياسية والثقافية والانقسامات الاجتماعية والثقافية الحادة، التي تختزل طبيعة الصراعات وأثرها على المثقف والثقافة والهوية، أسّست لانقسامات جديدة أشدّ عنفا وقسوة في حقبة الاستبداد الأحادية بعد الهيمنة على المجتمع وصوت المثقف، ودفع المُختلف الى الانزواء أو التقية أو للهرب والمنفى، تحولات شملت بنية المثقف ودوره في المجتمع من مثقف تنويري الى أيديولوجي ثم مثقف دولة ثم مثقف سلطة وأخيرا الى مثقف "مِلّة" في زمن التشظي الهوياتي بعد سنة 2003م.

إن ظاهرة العنف والقسوة التي رافقت التحولات ووصلت ذروتها في الحرب الأهلية ليست وليدة اللحظة، هي ظاهرة كامنة يختزنها التاريخ وتغذيها الثقافة، عباس بيضون يرصد هذه الجدلية في تقديمه لكتاب الأحوال والأهوال لفالح عبد الجبار بالقول، (إذا كان العنف هو مقابل التاريخ، فان الثقافة هي المعادل الثاني، وعليه فان العنف الذي لا يوجد بذاته إنما يشتبك بالتاريخ والثقافة ويوجد فيهما)[lxxiii].إن التحولات السياسية والاجتماعية والثقافية المتسارعة في العقود الأخيرة، قد ساهمت باستمرار دورة العنف والتطرف والفوضى وتصدّر قيم البداوة، دفعت المثقف الى الانزواء وازدياد الفجوة بينه والمجتمع.

قائمة المصادر والمراجع.

1. حيدر سعيد، سياسة الرمز، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت 2009
2. حيدر سعيد وآخرون، مولد المثقف اللادولتي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت 2017
3. جون ستوري، النظرية الثقافية والثقافة الشعبية، ت. صالح خليل، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي 2014
4. سامي مهدي، الموجة الصاخبة، ط 2، دار ميزوبوتاميا، بغداد 2014
5. سعد سلوم، أقليات في مهب الريح، بيت الحكمة، بغداد 2011
6. عبد الله العروي، أزمة المثقفين العرب، ت. ذوقان قرقوط، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت 1978
7. عبد الله العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي، ط4، بيروت 1997
8. علي الوردي، مقابلة في مجلة البيان الكويتية، العدد 101 سنة 1974
9. فاضل العزاوي، الروح الحية، دار المدى، بيروت 1997

10. فاطمة المحسن، تمثلات الحداثة في ثقافة العراق، منشورات الجمل، بيروت 2015
11. فاطمة المحسن، الرحلة الناقصة، منشورات الجمل، بيروت 2021
12. فالح عبد الجبار، ما بعد ماركس، دار الفارابي، بيروت 2010
13. فالح عبد الجبار، في الأحوال والأهوال، الفرات للنشر، بيروت 2008
14. فوزي كريم، تهافت الستينيين، دار المدى، بغداد 2006
15. محمد عابد الجابري، المسألة الثقافية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1999
16. محمد غازي الأخرس، خريف المثقف في العراق، دار التنوير، بيروت 2011
17. محمود حسين موسى، القراءات الخاطئة وجحيم البلاد، ج1-2، الحوار المتمدن، العدد 7673 (2023/7/15) والعدد 7689 (2023/7/31)
18. محمود حسين موسى، آخر البرابرة، فأر هيجل والدكة وكائنات الطبيعة، الحوار المتمدن، العدد 8605 (2026/2/1)
19. نادية هناوي، ملابسات بيان شعر 69، جريدة الصباح، 2-1-2023
20. نازك الملائكة، قضايا الشعر العربي المعاصر، مكتبة النهضة، بيروت 1963
21. هارلمبس وهولبورن، سوسيولوجيا الثقافة والهوية، ت. حاتم حميد محسن، دار كيوان، دمشق 2010
22. وائل عبد اللطيف، أصول العمل النيابي، بغداد 2006

الهوامش.

[i] **حيدر سعيد وآخرون، مولد المثقف اللادولتي، ص 461-462**
[ii] **حيدر سعيد، سياسة الرمز، ص 9**
[iii] **محمد غازي الأخرس، خريف المثقف في العراق، ص 6**
[iv] **جون ستوري، النظرية الثقافية والثقافة الشعبية، ص 16**
[v] **فالح عبد الجبار، في الأحوال والأهوال، ص 25-26**
[vi] **محمد عابد الجابري، المسألة الثقافية في الوطن العربي، ص 18-19**
[vii] **هارلمبس وهولبورن، سوسيولوجيا الثقافة والهوية، ص 10-15**
[viii] **فاضل العزاوي، الروح الحية، ص 9**
[ix] **فاضل العزاوي، نفسه، 13-14**
[x] **سامي مهدي، الموجة الصاخبة، ص 21-22**
[xi] **سعد سلوم، أقليات في مهب الريح، ص 249**
[xii] **وائل عبد اللطيف، أصول العمل النيابي، ص 76-80**
[xiii] **محمود حسين موسى، القراءات الخاطئة وجحيم البلاد، الحوار المتمدن، العدد 7673**
[xiv] **محمد عابد الجابري، مرجع سابق، ص 13-14**
[xv] **محمد عابد الجابري، نفسه، ص 13-14**
[xvi] **حيدر سعيد، سياسة الرمز، مرجع سابق، 65**

[xvii] فلاح رحيم، أزمة التنوير العراقي، ص 17
[xviii] حيدر سعيد، سياسة الرمز، ص 32-33
[xix] محمود حسين موسى، آخر البرابرة، فأر هيجل والدكة وكائنات الطبيعة، الحوار المتمدن، العدد 8605
[xx] علي الوردي، مجلة البيان الكويتية، ص 44-46
[xxi] حيدر سعيد، سياسة الرمز، ص 11-12
[xxii] حيدر سعيد، نفسه، ص 24-25
[xxiii] فالح عبد الجبار، مرجع سابق، ص 27 – 28
[xxiv] فالح عبد الجبار، نفسه، ص 17-18
[xxv] حيدر سعيد، سياسة الرمز، مرجع سابق، ص 65
[xxvi] فلاح رحيم، مرجع سابق، ص 17
[xxvii] فاطمة المحسن، تمثلات الحداثة في ثقافة العراق، ص 9-15
[xxviii] حيدر سعيد، مولد المثقف اللادولتي، مرجع سابق، ص 461-462
[xxix] فوزي كريم، تهافت الستينيين، ص 46
[xxx] فوزي كريم، نفسه، ص 46
[xxxi] فاطمة المحسن، مرجع سابق، ص 55
[xxxii] فاضل العزاوي، مرجع سابق، ص 39
[xxxiii] فوزي كريم، مرجع سابق، ص 46
[xxxiv] سامي مهدي، مرجع سابق، ص 32
[xxxv] فاطمة المحسن، مرجع سابق، ص 161
[xxxvi] نازك الملائكة، قضايا الشعر العربي المعاصر، إهداء الكتاب
[xxxvii] فاطمة المحسن، مرجع سابق، ص 135-136
[xxxviii] فاضل العزاوي، مرجع سابق، ص 40
[xxxix] هي عناوين مؤلفات الشعراء الستينيين النقدية التي تحمل رمزيات التقابل الأيديولوجي الثنائي شيوعي – قومي، الموجة الصاخبة لسامي مهدي، والروح الحية لفاضل العزاوي، سيتم تناولها في المحور الثالث.
[xl] فوزي كريم، مرجع سابق، ص 43
[xli] فاطمة المحسن، مرجع سابق، ص 132-133
[xlii] فاضل العزاوي، مرجع سابق، ص 52-54
[xliii] فاضل العزاوي، نفسه، ص 12
[xliv] محمود حسين موسى، القراءات الخاطئة وجحيم البلاد 2، الحوار المتمدن، العدد 7689
[xlv] محمد غازي الأخرس، مرجع سابق، ص 10
[xlvi] فاطمة المحسن، مرجع سابق، ص 15-18
[xlvii] فاطمة المحسن، نفسه، ص 30-31
[xlviii] حيدر سعيد، مولد المثقف اللادولتي، 463-464
[xlix] علي الوردي، مرجع سابق، ص 45
[l] فوزي كريم، مرجع سابق، ص 48-49
[li] فاطمة المحسن، مرجع سابق، ص 117
[lii] محمد عابد الجابري، مرجع سابق، ص 103-104
[liii] فاطمة المحسن، مرجع سابق، ص 57

[liv] فلاح رحيم، مرجع سابق، ص 16
[lv] فاطمة المحسن، نفسه، ص 9
[lvi] فاضل العزاوي، مرجع سابق، ص 42-43
[lvii] عبد الله العروي، أزمة المثقفين العرب، ص 152
[lviii] عبد الله العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ، ص 176
[lix] حيدر سعيد، مولد المثقف اللادولتي، ص 461-462
[lx] فاضل العزاوي، مرجع سابق، 77
[lxi] فاضل العزاوي، نفسه، 50-51
[lxii] حيدر سعيد، سياسة الرمز، ص 12
[lxiii] نادية هناوي، ملابسات بيان شعر 69، جريدة الصباح، 2-1-2023
[lxiv] فاطمة المحسن، الرحلة الناقصة، ص 61
[lxv] سامي مهدي، مرجع سابق، ص 10-11
[lxvi] سامي مهدي، نفسه، ص 60-61
[lxvii] فاضل العزاوي، مرجع سابق، ص 36
[lxviii] فاضل العزاوي، نفسه، ص 36
[lxix] فاضل العزاوي، نفسه، ص 37
[lxx] فالح عبد الجبار، ما بعد ماركس، ص 99-101
[lxxi] فالح عبد الجبار، نفسه، ص 43-44
[lxxii] فاطمة المحسن، الرحلة الناقصة، ص 252- 253

[lxxiii] فالح عبد الجبار، في الأحوال والأهوال، ص 7-8

Iraqi Culture and the Intellectual in Light of Political and Social Transformations "The 1960s Generation as a Model"

Mahmoud Hussein Moussa
College of Basic Education – Al-Mustansiriyah University
mahmouddk05@gmail.com
07730007065

Abstract

The century-long journey of the modern Iraqi state ended in extreme authoritarianism and despotism, leading to isolation, disintegration, and civil war. The country emerged exposed and vulnerable. After all that transpired, politics alone is blamed for bringing the country back to square one: statelessness, a primitive state, and fragmented identity. If history is a "lesson," as Ibn Khaldun said, then invoking the past is essential for understanding the present and shaping the future. The present is preoccupied with reproducing the political and cultural past, and intellectuals are key partners in political and social transformations. Studying the "spirit of the age" and the intellectual's perspective on these transformations is of paramount importance, yet these are often neglected aspects of study. The intellectual generation of the 1960s represents the clearest example of the contradictions and divisions within 20th-century Iraqi cultural history—a generation that witnessed, participated in, and was a partner in these transformations.

Keywords: Political and social transformations, culture, identity, modernity, ideology, cultural wars.